أثر القصة فى تربية الشعب

بقلم الأستاذ محمود تيمور بك

القصة مظهر من مظاهر التعبير عما تختلج به النفس ، ويضطرب به الخاطر ، إذ أن النفس البشرية قد جبلت منذ القدم على أن تعبر عما ينعكس على صفحاتها من مظاهر الكون كما طبعت على الإفصاح عما يدور فى واعيتها من أثر المشاهدة والسماع . فكان الرقص والنقش فى الحجر ، والتصوير ، والغناء ، وتقليد أصوات الحيوان من طير وغيره ، ومحاكاة حركاته ضروبا من هذا التعبير والإفصاح تجرى فى حالة بدائية بلا قصد ، وذلك قبل أن يضع لها الذهن البشرى أصولا وقواعد ، تجعلها فنونا مستقلة ، هى النحت والتصوير والموسيقى والتمثيل وغيرها . وليست القصة فى الواقع إلا وسيلة من وسائل الترجمة والإبانة التى درجت مع الإنسانية فى نشوئها القديم .

ولعل فن التاريخ قديم من صميم القصة ، إذ كان فى مبدئه أساطير يسوده التحيز والإغراق والغلو ، والأسطورة بداءة القصة ، تسجل شيئا من الواقع لحياة الأبطال ، وتعتمد على الكثير من تزويق الخيال . وعلى مر الأيام استقل التاريخ بنفسه ، وانفصل عن الأسطورة ، فأصبح تاريخا له وقائعه ، وله حقائقه . وأيضا تطورت الخرافة ، فتحولت قصة ، واستمر فى القصة التطور ، فاتخذت مذاهب وألوانا شتى .

والآن نتساءل : هل كان للقصة حقا أثر فى التربية والتهذيب ، وفى نصرة الفضيلة وإقرار المبادئ القويمة ؟ الحق أن الإنسانية منذ اصطحبت أصول الاجتماع ، أعنى منذ تبرم الإنسان بحياة الوحدة والتشتت والأثرة ، وآثر الشركة والاستقرار والتعاون فى ظل أنظمة الأسرة والقبيلة والمدينة والوطن . هذه الإنسانية اضطرت أن تقرر قواعد للفضيلة والرذيلة تتطلبها الحياة الاجتماعية . فكان من واجب الإنسان الحضرى أن يدعو اليها ويذود عنها ومن ثم اضطلع الحكماء المرشدون من الوعاظ والخطباء بهذه المهمة ، وجاءت الكتب السماوية بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكانت المواعظ التى تبث ، والخطب التى تلقى ، تتخذ شكل الترغيب والتحذير ، والوعد والوعيد ، فى أسلوب صريح ، ومنحى واضح ، فهى تمثل الطريقة المباشرة فى الوعظ والإرشاد .

وليس لنا أن ننكر ما لهذه الطريقة من فضل هداية النفوس ، ونصرة مكارم الأخلاق إلا أن جماعة من أهل الرأى فطنوا إلى وسيلة أخرى لبلوغ هذا الهدف من طريق غير مباشر

دون استخدام الحض الصريح أو التنفير المكشوف. فكانت القصة الفنية مظهر هذه الوسيلة تصاغ حوادثها على نحو يكفل التسلية ويجرى كل شيء فيها مستورا تحسه ولا تراه . وهي بعرضها مشهدا من مشاهد الحياة كما يكون فى الواقع ، إنما تتيح لنا أن نتأمل فى صحائف من حياتنا نسخر من غباوة الغبي ، ونضحك من جهالة الجاهل ، ونتحرز من مزالق الرذيلة . وهـذه الوسيلة فى العرض والتعبير تفعل فى النفس أكثر من الوعد المباشر ، أو الوعيد المباشر ، لأنها تتسرب إلى الحس من غير استئذان أو تنبيه . والإنسان فى قرارة غريزته لا يميل كل الميل الى ما يذكره بضعفه ، وما يدله دلالة صريحة على انحرافه عن جادة الحق : فان قالوا له لا تفعل ، فى أمر ومجاهرة ازداد هو ، من غير وعى ، صلابة و إصرارا ؛ ليحافظ على استقلال شخصيته ولأن كل ممنوع إلى النفس حبيب .

والقصاص يتخذ من الوسائل فى عرضه ومعالجته ما يدع الآذان مصغية الى ما يقول ، إذ أنه يضفى على القصة خيالا ممزوجا بحوادث من الواقع ممتعة تتخللها مشوقات خلابة ؛ فلا يلبث ذلك أن يبعث فى نفس المطالع نشوة تجعله يتابع القصة بعينه ، و يسايرها برأيه وتأثره .

ولقد جعلت القصة تتطور مع الزمن وحاجاته وملابساته ؛ فتتسامى من درجة الى درجة حتى أصبحت تتسنم ذروة عالية من تقدير الأدباء ورواد الفكر ، يطرقونها بقرائحهم وأقلامهم للوصول إلى أعماق القلب الإنسانى ؛ وسبر أغوار النفس البشرية واكتناه أسرارها .

تلك هى القصة فى معناها الواسع وأغراضها السامية ، وذلك أثرها فى التشذيب والتهذيب. و إنى لأرى لزاما علىّ أن أتوسع فى التحدث عن القصص الفنى واللا فنى ؛ ليتجلى أثر كل منهما فى نفس قارئه . وما دامت القصة فنا فمرماها الجمال ، والجمال فى محيطه الفسيح آية من آيات الخير . فالفن عند الكاتب الفنان طبيعة صادقة ، ونزعة إلى تجميل الواقع ونابة ، والقصة الفنية تشترط — أول ما تشترط — الصدق ، وهى لا تستكمل فنيتها إلا أن كانت صادقة فى موضوعها ، صادقة فى الكشف عن نفوس أشخاصها ، صادقة فى أهدافها ومراميها ؛ سواء أكانت للقراءة أم للمسرح أم للسينما . فالصدق أساس لكل عمل فنى . وكذلك الطبيعة بواقعها دعامة لفنية القصة . ولست أعنى بالصدق والواقع نقل الحياة نقلا فوتوغرافيا ، و إنما أعنى به التعبير الصادق عن إحساس الفنان فى سمو ، وذلك مع التغلغل فى الشخصية المراد رسمها ، واستبطان دخيلتها ، وعرضها بطرق مختلفة فى التعبير ، بين تركيز أو تحليل ، و إجمال أو تفسير ، ورمز أو إفصاح . ولا ننسى أداة الكاتب فى معالجة القصة الفنية ، وهى الذهن والعاطفة والخيال ، فهذه ملكات تعين على تسجيل مظاهر الطبيعة والسمو بها وتجميلها فى التصوير والتعبير . وقبل هذا كله لا غناء للقاص الفنى عن تعرف العالم الإنسانى بما يعتلج فيه من متباين الغرائز والمشاعر والنزعات .

فأما القصص اللافنى فهو الذى يتجافى عن الصدق والواقع . والقاص غير الفنى هو الذى يسلك فى طريقه أدون الوسائل ، غير عابىء بشىء فى سبيل الوصول إلى مبتغاه . فلا يماشى حركة الحياة الطبيعية للأشخاص ، بل يرغمهم على الأطوار التى يريدها ، ويسلمهم إلى النتائج التى يضعها ، ويفتعل من أجل ذلك مؤثرات مصنوعة ، وتأثرات كاذبة ، مستعينا بمهارة رخيصة ، وطلاء سريع الشحوب ، فيتهافت من الوجهة الفنية أسوأ التهافت ، ولا يصبح من فن القصة فى قليل ولا كثير .

وهذا القصص اللافنى مع الأسف مرتعه الخصيب بين الجمهور غير المثقف ، وله تأثير وإن كان سريع الزوال فى الطبقات الدنيا من هذا الجمهور على وجه خاص . فغير المثقف يرى فى هذا القصص صورا ملموسة لا تلبث أن تروعه ، ويصادف شخصيات غير معقدة يتفهمها على عجل ، وتمر به مغالطات نفسية فى سياق الحوادث تجوز عليه ، فيتأثر بها أيما تأثر .

بيد أن الواقع الذى لا ريب فيه أن التأثر الذى لا يقوم على الحقائق معرض للزوال إذا انكشفت الخدعة ، واستيقظت الفطنة ، وحينئذ لا يبقى الأثر الذى طمح إليه القصصى اللافنى فى توجيه الجمهور وتربيته على هذا النحو .

وما دام بقاء القصص اللافنى فى ثوبه المهلهل رهينا بثقافة الجمهور ، فإن رقى التعليم على اختلاف درجاته ، وشيوعه بين الشعب على تباين طبقاته كفيل بمناوأة هذا الضرب من القصص والقضاء على سلطانه يوما بعد يوم . فكلما ازدادت الثقافة وانبسطت أجنحتها تقاربت الخطا إلى القصص الفنى ، وأخذت القصة طابعا يألفه العامة ولا يترفع عنه الخاصة . وعلى كتابنا المعاصرين أن يأخذوا على عواتقهم تقريب المسافة ، واقتصاد الزمن ، وذلك بترويد الجمهور بما لا ينبو عن ذوقه ، ولا يعلو على فهمه ، مع الاحتفاظ جهد الطاقة بالسمو الفنى . فإن نجحت هذه التجربة زهد الجمهور فى القصص الرخيص ، ودنا شيئا فشيئا من المكانة التى ينبغى أن يستسيغ فيها طعامه الطيب ، ويرحب بما يؤثر فى تربيته أثرا شريفا باقيا يتوارثه الأجيال .

ولقد ساء جماعة من النقاد أن يقصر بعض أدباء القصة فى مطاوعة الحياة الراهنة ، وأن يهملوا القيام بقسط من التوجيه والإرشاد ، وألا يتخذوا من أدوائنا الاجتماعية مادة يؤثرون بها فى الجمهور ، ويحببونه فيما يعود عليه بالنفع . فهل قصر أدباء القصة حقا فى هذا الواجب؟ وماذا كان عليهم أن يفعلوا ؟

كثيرا ما يقع الخلاف على نقطة تعرض للباحث فى هذا الموضوع ، تلك هى أن بعض الناس يظنون أن القصصى والأديب على وجه عام ، يملك أن يؤثر فى المجتمع الذى يعيش فيه ، بأن يؤجج ثورة مثلا ، وأن ينشىء مذهبا أية كانت غايته . وبعبارة أخرى : يكون له

تأثير إيجابى فى البيئة التى يحيا فيها . وعندى أن لرأى الراجح فى هـذه الناحية هو أن القاص الموهوب بحسه المرهف ويقظته الحادة فى الشعور بأدق الحاجات التى تسرى فى المجتمع — قادر على أن يقتنص الخفى العميق الكامن فى واعية الجمهور ، فلا يلبث أن يعبر عنه ، أى يحيله مادة مكتوبة . وقد يكون فيما يزول من ذلك مدفوعا بعامل لاشعورى تخفى عليه ملامحه ، فهو يتأثر بالمجتمع الذى يعيش فيه ، فيترجم عن هذا التأثير — قبل أن يحسه سواه — فى عمل قصصى ، مثله فى ذلك مثل سائر الفنانين من موسيقيين ومثالين وغيرهم .

فالذين يلومون القصاص المصريين على سكوتهم قد يكون فى لومهم بعض الحق . إذ يحتمل أن يكون أولئك القصاص لم يواتهم من الملكات الموهوبة ما يتمكنون به من أن يحسوا ، وأن يحسنوا التعبير عن النزعات والمطامح التى تضطرم بين حنايا المجتمع . وإما أنهم يحسون ويدركون ما يصح أن يكتبوا فيه ، ويجعلوه مادة لقصصهم ، ولكن ملابسات الحياة الراهنة تحجزهم عن ذلك . وإما أن يكون الأمر كما يريد بعض أن يقول ، وذلك أن البيئة المصرية فى هذه الفترة مستبد بها سبات . وما يختلج فيها الفينة بعد الفينة إنما يختلج لمحا وخطفا ، فهو لا يثير الفنان ، ولا يبعثه على التأثر والتعبير .

ومثل هذا يجب أن يقال فى النقد الموجه إلى الموسيقيين ، لخلو ألحانهم مما يثير الشجاعة والحماسة ، وامتلائها بألوان متشابهة من النواح والبكاء ، أو الهزل والمجون . وعذرهم الحق أن ذلك تصوير لنفسية الأمة التى يساكنونها ، وما هى إلا بين ناجن يهزل أو شاك يئن ، ولا يطلب من الموسيقى أن يتكلف أو يفتعل ، فيؤلف لحنا يمثل النفوس القوية ، مع أنه لم يستوحه من قلب الشعب . فإن فعل ذلك كان كالقصاص الذى يتكلف قطعة ثائرة ، دون أن يستلهم قومه هذه الحماسة . فالتكلف والافتعال مقضى عليهما بالخذلان والإخفاق . ولن يكتب الخلود إلا لعمل يخرج من قلب فنان صادق التعبير خالص الإلهام .

ولا ننسى مع هذا أن بعض قصاصنا الفنيين لم يفتهم تسجيل ظواهر التذمر أو النشاط الحيوى ، ولم يهملوا عرض أشتات الأمراض الاجتماعية التى يعانيها الشعب ، ولكننا نرجو أن تقوى فى الأمة روح الطموح إلى ما هو أعلى ، وأن تحتدم بين جوانحها الآمال والرغبات . فيعظم اهتمام الفنانين بالتعبير عن مشاعر الأمة فى صياغتهم الفنية ، ويكون للقصصيين من ذلك نصيب وافر ، ويومئذ يتحقق لنا للقصة فى تربية الشعب من أثر واضح كبير .

محمود تيمور